

## المعرفة والثروة في عصر العولمة

2005/08/16

لعبت المعرفة ومنذ فجر التاريخ دورا هاما ومحوريا في حياة الانسان وفي تقدم مجتمعاته وتحريره من الفقر والجهل والظلم . وإذا كان الانسان القبلي قد إفتقد دوافع التقدم وعوامل التطور، فإنه بدأ بالاستحواذ على تلك الدوافع والعوامل تدريجيا بعد إكتشاف الزراعة ودخول عصرها والتحول من حياة التجوال الى حياة الاستقرار. إلا ان المعرفة وصناعتها في العصر الزراعي كانت ترفا لا يمارسه غير الاغنياء ولا يشجعه غير السلاطين والحكام ولا يستخدمه غير اصحاب النفوذ السياسي والهيمنة الاجتماعية - الثقافية . اما في العصر الصناعي فان المعرفة أصبحت وسيلة لتقدم الاقتصاد وتطوير التكنولوجيا وتحرير الفرد والمجتمع . وهذا جعل المعرفة تتحول بسرعة من مبادرات وملكات عقلية فردية الى عمليات مؤسسية تملكها الدولة واصحاب المصالح الاقتصادية ، ويستخدمها الحكام ورجال الاعمال واصحاب رؤوس الاموال وغيرهم لزيادة ثرواتهم وتكريس نفوذهم . وفي عصر العولمة أصبحت المعرفة حاجة فردية ومجتمعية ماسة وأهم أدوات تحرير الذات من كل القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بما في ذلك قيود الفقر والقهر السياسي والكنب الاجتماعي والتبعية الفكرية وغير الفكرية . وهنا لا بد من الاشارة الى ان العولمة ليست عصرا رغم إستخدامنا لتعبير عصر العولمة . إن العولمة ليست الا ظاهرة مجتمعية وكونية انت في اعقاب تطورات تاريخية كثيرة وعميقة وادت الى ربط الناس افرادا وجماعات ، شعوبا ودولا بروابط ثقافية وسياسية وامنية واقتصادية وعلمية وبيئية مما جعل كافة شعوب الارض واقتصاديات كل الدول تعتمد على بعضها البعض وتتكامل مع بعضها البعض.

في عصر المعرفة ، وهو العصر الآخذ اليوم في التكون ، والذي يطلق عليه أحيانا عصر المعلومات ، وأحيانا عصر ما بعد الصناعة ، وأحيانا أخرى عصر العولمة ، أصبح للمعرفة وللوقت دورا أكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع على السواء . اذ بالتحول من نمط انتاج البضائع الى نمط انتاج المعلومات والخدمات المؤسسة على المعرفة والتخصص العلمي الدقيق أصبح الوقت أهم الثروات التي يملكها الانسان المعرفي جميعا. وحيث ان صناعة المعلومات وتصميم شبكات الاتصالات والمواصلات ونظم الادارة وبرامج الكمبيوتر تقوم على العلم والتكنولوجيا الصناعية المتخصصة ، فان المعرفة أصبحت أهم الموارد الانتاجية وأكثر مصادر الثروة عطاءً على الاطلاق ، اذ أصبحت إمكانياتها تعادل امكانيات رأس المال والموارد الطبيعية معا.

الا أن المعرفة ، وبسبب ارتفاع تكلفتة الحصول عليها واحتياجها لسنوات طويلة من التعليم الرسمي والتدريب العملي والخبرة التخصصية ، أصبحت مصدرا لتعميق الفوارق الطبقيّة وخلق الفجوات الثقافية والاجتماعية بين افراد المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة. وفي الواقع ، ادت ديناميكية الحياة عامة وسرعة التراكم المعرفي والتطوير التكنولوجي والتحول الثقافي والاجتماعي والتلاقح الفكري والانفتاح على الغير والعالم الى تفتيت كل الثقافات الوطنية وتجزئة كل المجتمعات القومية. ولهذا أصبح من الصعب الحديث عن مجتمع وطني او مجتمع قومي ، كما أصبح من الصعب ايضا الحديث عن ثقافة وطنية او ثقافة قومية. ولقد ترتب على هذا دخول مفهوم الهوية في ازمة عميقة وشعور كل الثقافات التقليدية وكل الشعوب النامية بالقلق على التراث والخوف من التيارات العولمية التي تهدد وحدة المجتمع وخصوصية ثقافتها الوطنية.

في العصر الزراعي ، وبسبب طبيعة مهنة الزراعة ، لم تكن هناك حاجة كبيرة لعمالة ماهرة او لعمال يحترمون الوقت بالمعنى المعروف اليوم ويقدرون قيمته كما يجب. كان المهم ان لا يتأخر الفلاح عن المواسم الزراعية والتي كانت ولا تزال في غاية المرونة. كما كانت المعارف في حينه ايضا بسيطة ولا تزيد كثيرا عن كونها حصرية تجارب حياتية يتوارثها الابناء عن الآباء عن الاجداد ، ويمكن الحصول عليها من خلال التمسك بالتقاليد الراسخة واتباع الحكمة المألوفة. في العصر الصناعي أصبح من الضروري توفر عمالة ذات مهارات فنية جيدة وعمال يحترمون الوقت ويلتزمون به بدقة ويراعون النظام ويقدرون أهمية الانتاج والكسب المادي. وهذا جعل المعرفة تكتسب أهمية خاصة ، وجعل العامل الصناعي أكثر وعيا بحقوقه وموقعه من المجتمع ودوره فيه ، مما ادى فيما بعد الى تبلور وعي طبقي في المجتمع الصناعي عامة وظهور الاتحادات العمالية واستحواذها على نفوذ سياسي واجتماعي واسع.

اما في عصر المعرفة ، فان العامل المعرفي أصبح بحاجة كبيرة لمهارات فنية عالية ومعارف علمية تخصصية ومواقف ايجابية من العمل والوقت والنظام. وهذا يعنى انه لم يعد بإمكان أي عامل أن يكون

مشاركاً في صناعة المعرفة دون امتلاك معارف علمية ومهارات فنية وقيم إجتماعية لاكتسبها العامل عادة الا من خلال التعليم الرسمي والتدريب العملي والانغماس الشخصي في التحصيل العلمي والتخصص الدقيق. وفي الواقع أصبح المعرفي رأسمالياً بما يملك من معارف ومهارات ، فمعرفة يمكن استثمارها في أماكن مختلفة وباشكال مختلفة تعود عليه بعوائد مادية ومعنوية مجزية ، وتعفيه من الحاجة للواسطة او اللجوء الى الرشوة او القبول بالتنازل عن بعض قيمة من أجل الحصول على فرصة عمل مناسبة. ألا ان المعرفة قادت المعرفي ، ومن حيث لا يدري ، كي يصبح جوالاً ينتقل من شركة لآخرى ، ومن مكان لآخر، ومن بلد لآخر بحثاً عن فرصة عمل افضل ودخل اوفر. وهذا اضعف لدى المعرفي الشعور بالانتماء الى بلد معين والالتزام بقضية دون غيرها. ولذلك اصححت ثقافة عصر العولمة تتمحور حول المعرفة مما جعل " الانسان المعرفي يتعلم ليعيش ويعيش ليتعلم " ، بينما كان القبلي يحارب ليعيش ويعيش ليحارب . أما الزراعي فقد كان يأكل ليعيش ويعيش ليأكل ، بينما كان الصناعي يعمل ليعيش ويعيش ليعمل.

ان ارتباط المعرفة بالثروة قديم قدم التاريخ ، إذ كانت المعرفة القائمة على السحر والشعوذة أداة لكسب العيش والاحتياك على الغير والسيطرة عليهم. ولقد تطورت علاقة المعرفة بالثروة إيجابياً حيث أصبحت المعرفة التكنولوجية في عصر الصناعة أهم وسائل زيادة الانتاج ورفع انتاجية العامل والآلة معا ، وانتاج أدوات تكريس القهر وادوات تحقيق النصر على السواء. اما اليوم فان المعرفة المؤسسة على العلم أصبحت اساس الثروة والقوة في المجتمع ، كما أصبحت الثروة في ضوء ارتفاع تكلفة التعليم الوسيلة الأهم للحصول على المعرفة. وبسبب هذا الترابط الوثيق بين الثروة والمعرفة اصبح من الصعب على الفقير الحصول على المعرفة ، وبالتالي الحصول على وظيفة جيدة تمكنه من العيش بكرامة وتكوين بعض الثروة ، بينما اصبح من السهل على الثري وابنائهم الحصول على التعليم المعرفي الذي يؤهلهم للحصول على فرص عمل جيدة وتكوين المزيد من الثروات والاستحواذ على المزيد الامتيازات.

إن التزايد المستمر في تكلفة التعليم المعرفي يؤدي اليوم الى حرمان غالبية الطلبة من الحصول عليه ، إذ أصبح مثل ذلك التعليم مقصوراً على الأثرياء وابنائهم الى حد بعيد. وهذا يجعل من الضروري قيام الدولة بالتعاون مع مؤسسات المجتمع المدني بتوفير التعليم المعرفي في كل بلد عربي ، والبحث عن الموهوبين والطموحين والعناية بهم والعمل على توفير فرص التعليم المعرفي لهم وتنمية مواهبهم وقوى الخلق والابتكار والابداع لديهم. إن العناية بالموهوبين ليس ترفاً إجتماعياً بل حاجة مجتمعية في غاية الأهمية ، وذلك لان مستقبل الوطن والاجيال القادمة والشعب اصبح يتوقف على كيفية تعامل الامة مع ما لديها من رأسمال بشري ومواهب لتنمية المعارف وتكوين رأسمال تكنولوجي يكون بإمكانه الاسهام في عملية التنمية وتحقيق التقدم المجتمعي بأشكاله المختلفة.

ان نظرة سريعة الى عالم اليوم سوف تكشف لنا ، وبوضوح بالغ ، انه لا يوجد مجتمع معرفي فقير، ولا يوجد مجتمع جاهل ثري. كما انه لا يوجد مجتمع جاهل غير فقير، ولا يوجد مجتمع معرفي غير ثري. الفقر يلد الجهل ، والجهل يغذي الفقر، والغنى يلد المعرفة ، والمعرفة تغذي الغنى. وبينما يسير الثري والمعرفي في الشرق وفي الغرب على السواء بسرعة الى الامام نحو تحقيق المزيد من الثروة والمعرفة والقوة والنفوذ ، يتراجع الفقير والجاهل من الافراد والشعوب والدول باستمرار، وتزداد فجوة المعرفة والثروة التي تفصل الاثنين عن بعضهم البعض ، داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة.